

الذات والموضوع في رواية (سلامة القدس)

د. أبوبكر محسن الحامد

قسم اللغة الانجليزية،

كلية التربية، جامعة عدن

ينقسم هذا البحث إلى قسمين، القسم الأول يتناول مضمون رواية سلامة القدس وسياقها، والقسم الثاني يتناول جمالية اللغة في التعبير عن هذا المضمون. ونقصد بجمالية اللغة الاستخدام الفني الأدبي للغة بحيث تحدث قراءة النص أثراً جمالياً في نفس القارئ، ونرى – كما يرى كيروان أن "الجمال هو ذلك الشعور المفرح الذي يسري فينا سريعاً نتickleنا مع ما هو جميل" ⁽¹⁾ وفي حالتنا هذه ففعلننا هو مع النص الأدبي الجميل. وتشكلت جمالية اللغة أو الاستخدام الفني للغة في الرواية من خلال استلهام التراث اللغوي الأدبي والديني، وتوظيف الشعر ، وإدخال عدة إشارات مباشرة وغير مباشرة نابعة من التراث ⁽²⁾ وتشكيل الصور الفنية.

يتمثل مضمون رواية (سلامة القدس) في قصة عاطفية جرت بين العابد الفقيه الناسك الملقب بالقس عبد الرحمن والمغنية الغانية المذهبة سلامة، وحال بين تمام هذه العلاقة العاطفية، أي بين زواجهما، أن سلامة يومها كانت أمة مملوكة لرجل غنين ولم يكن في مقدور الناسك عبد الرحمن إن يشتريها من مالكها لقلة ذات اليد، ولكن عبد الرحمن سلامة كانا يلتقيان وربما خلا بها وهم بها ومنعه منها خوف الله لأنه يريد لها حلالاً وكلما هم بها تذكر قول الله "الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين" وقوله "ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه" يورد البابكري ملخص هذا الحدث بعنوانه الذي قدمه الأصفهاني نفسه، "ذكر سلامة القدس وخبرها". "ملخص الحدث التاريخي كما ورد في كتاب الأغاني أن سلامة القدس من مولدات المدينة، اشتهرت بالغناء، والقس هو عبد الرحمن بن أبي عمار أحد فقهاء مكة سمي بالقس لزهده وكثرة عبادته ، وحدث أن سمع القدس غناء سلامة على غير تعمد منه فرأه سيدها فدخله عليها فشغف بها حباً فشاع في مكة الخبر فسميت هذه الجارية سلامة القدس ذات يوم خميس اختلى القدس بسلامة فراودته عن نفسه فاستعصم وتلا عليها قول الله تعالى "الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين" وقال لها أكره أن تؤول خلة ما بيني وبينك إلى عداوة وانصرف من عندها وعاد إلى ما كان عليه من

الذات والموضوع في رواية سلامة القس..... د. أبوبكر محسن الحامد

نسك ووصل إلى يزيد بن عبد الملك خبر سلامة وحسن غنائها وجمالها فاشتراها"
(البابكري 35).⁽³⁾

هذا المضمون جرى في سياق عاطفي وديني ، فالحالة هي حالة وجданية، تعلق رجل بأمرأة، والمكان أو الجو هو في أساسه، جوديني، نسك وحلقات ذكر ومحالس علم، والزمان بعد مرور قرن من وفاة الرسول، "استمد -باكتير- قصة سلامة القس من تاريخ العصر الأموي" (السومحي 84). فأحداثها تجري خلال "القرن الهجري الأول" (البابكري 296).

يجري الحديث في مكانين مقدسين، مكة والمدينة، هذا السياق ، حالة ومكان، يتتشابه مع السياق الذي نشأ فيه باكتير وفيه علق بفتاته، أحبها، ثم تزوجها ثم لم يهنا بالزواج منها طويلا فماتت وهي في ميعادة الصبا. بل إن التتشابه بين طبيعة الحياة في سينيون⁽⁴⁾ في مطلع القرن العشرين وطبيعة الحياة في مكة في القرن الأول للهجرة ، السابع للميلاد، بارز من حيث الملامح الدينية للتعليم ، دور المسجد فيها.

أضف إلى هذا السياق المتشابه، تشابه شخصيات الرواية في سلوكها وطريقة تعبدها مع طريقة فقهاء سيوون (انظر الصفحتان 16 ، 22 ، 41 ، 157 على سبيل المثال).كتب السقاف في كتابه (إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت) شارحاً الطريقة التي تتم بها تربية طالب العلم في سيوون: "ومتنى فرغ من درسي .. - أي والده - جاء إليه الثنبي -أي طالب علم من دثينة كان نزيلا بدارهم -يقرأ عليه إلى قريب الظهر ، عنده زيتناول -أي والده - ما تيسر من الغداء، ثم يقبل نصف ساعة أو أقل، ثم يتهيأ للظهور فريضة ونوابل، ... "نقرأ في الرواية عبارات متوعة كلها تصف بطريقة مشابهة للكيفية التي يقضي فيها فقهاء سيوون أوقاتهم كما يقضي الناسك عبد الرحمن يومه: "كان يقضي جل نهاره في المسجد، فكنت لا تراه إلا نادراً في وقت الظهيرة حين يرجع للغداء، أو في طرف الليل حين يأوي للمبيت" (باكتير 22). وتشترك المرأة في سيوون في مجالس العلم العائلية، إذ تنشأ المرأة واعية بأمور دينها، ومتمسكة بمكارم الأخلاق: "فتارة يحضر عليه أولئك الرهط فيقرؤون، وتارة يدخل إلى أهله، وهناك تحضر الوالدة، بكتابها فتقرأ عليه، كلما انتهت من كتاب .. شرعت في آخر لأنها كانت مشاركة في العلم، وأحياناً يضرب الستر ويأتي الثنبي بكتابه وسيدي الوالدة من ورائه".

ومن يرجع إلى نصوص الرواية سيلاحظ التشابه واضحاً بين السياقين، فعبد الرحمن القس يومه موزع بين البيت متبعداً ومعلماً، والمسجد متبعداً أيضاً وواعظاً.

الذات والموضوع في رواية سلامة القس..... د. أبوبكر محسن الحامد

يواصل السقاف حديثه عن معلمه وكيف يقضي وقته خلال ساعات اليوم: "... إلى أن تجب العصر، فيقوم إلى مصلاه ويؤديها نافلة وفريضة بطهر مجدد، ثم يشتغل بشيء من الأوراد والحزوب. ثم يحضر الدثنى إلى المغرب، وعند ذاك يستأنف الطهارة، ثم يؤدى المغرب بناوافلها الراتبة وغيرها، ثم أحضر بكتابي فأقرأ درسا خفيفا، ويخلوفي الدثنى في القراءة إلى العشاء، وقد يحضر السابقون في هذا الوقت وغيرهم فيكون درسهم واحد. ثم يؤدى العشاء بدون تجديد طهارة، ثم يصلى راتبه، ويشتغل بأذكار المساء، ثم يتناول العلاقة من الطعام، ثم يأخذ مضجعه وقد غلب عليه الخوف من الله والشوق إليه، فقلما يطمئن به مضجعه، وهكذا دوالياك (السقاف 691). هذا المعلم، الأب عبد الله، له برنامجه اليومي، يقول عنه ابنه وتلميذه: " ومنذ عرفة وهو يقوم من النوم قبل انتصاف الليل فيخف إلى الطهارة ، ثم يصلى سنتها ، ثم الوتر إحدى عشرة بحسن قراءة وطول قيام، ثم يقرأ حصة من القرآن بصوت شجي، ثم يأخذ في الأوراد والمناجاة، وكثيرا ما يقول في آخر دعائه ... (اللهم ارحمنا يوم تبلى السرائر ، وتكشف الضمائير، وتوضع الموازين، وتنشر الدواين) " (السقاف 689). هذا الجو الديني هو سياق الرواية الذي نجد وصفه كلما بدت لنا شخصية عبد الرحمن الناسك.

يعزز هذا السياق ، الحالة والمكان، وجود الربط بين الذات والموضوع في هذه الرواية أي بين شخصية الكاتب وقصة سلامة، فقد "أصيب باكثير" في شبابه"بصدمة عاطفية . . . جعلته يهاجر من حضرموت" (ناجي 226): "ويضطر شاعرنا العاشق إلى السفر لاندونيسيا سنة 1345 هـ - 1926 م للقاء والدها – والد الفتاة التي علق بها الكاتب وأرادها زوجة له - والاستعانة بوالدته التي شده الشوق إليها، ويبقى عاما أو أكثر ليعود بالموافقة على الزواج من محبوبته الذي تم في غضون سنة 1347 هـ - 1928 م وعاش باكثير مع زوجته الحبيبة ما يقرب من أربع سنوات كانت أسعد سنوات حياته على الإطلاق . . . وما كاد العام الثالث لهذا الزواج السعيد ينقضى حتى تبنى هذه العروس الشابة بمرض عضال . . . فينهار إلى جوارها زوجها الرقيق ويتاثر نفسيا وجسديا، ولم يستطع أن يتحمل رؤية حلمه الذي تحقق بذوي أمامه ويموت" فغادر سيوون "لعله ينسى ولكنه لم يستطع بل كان قلبه يتمزق إربا إربا على الحبيبة المريضة التي تموت ببطء في سيئون وفي هذه الإثناء يصعق بخبر وفاتها الذي حدث في 15 - 1 - 1351 هـ الموافق 20 - 5 - 1932 م كتب باكثير عن قصته هذه يقول: "أنا عاشق كاد يقتله العشق. . . ويفقده عقله لقد جعلني الحب أجن . . . بالفعل !! وهذه هي الطلاقة الأولى في قصة خروجي من بلدي حضرموت! لقد

الذات والموضوع في رواية سلامة القس..... د. أبوبكر محسن الحامد

قررت بعد ما أفقت، قررت أن ابتعد عن جو الأنفاس التي عبقت بها محبوبتي جو حياتي هناك . . . قررت أن اهجر المكان، بعد أن هجرته هي وهجرتني!!" (حميد 54 – 55). ويقول "لن أعود إلى بلاد ماتت فيها نور" (حميد، ديوان علي أحمد باكثير 24). واستقر بمصر وبدأ الدراسة الجامعية فيها، "وفي عام 1939 وبعد أن أنهى باكثير دراسته في كلية الآداب التحق بالمعهد العالي للتربية وتخرج منه عام 1940" (المقال 10).

وأرى أن رحلة باكثير إلى مصر واقترابه من جو مختلف للمرأة عن جو مدينة سيوون، حيث تشارك المرأة بمصر في أداء الغناء والإنشاد الديني المحب إلى النفس، خذ مثلاً بروز صوت أم كلثوم في نهاية الثلاثينيات، هذا الجو الغنائي الجديد التي تشارك فيه المرأة أضاف إلى هذا السياق الذي أشرنا إليه سياقاً آخر، ولا بأس أن نطلق عليه جو الغناء في مصر. تتضح لنا هذه الصورة حين يسقط باكثير شخصية سلامة على شخصية المغنية العربية أم كلثوم. هذا هو وصف سلامة: " وكانت سلامة من صغرها صبيحة الوجه، فصيحة اللسان، حلوة الحديث، متقدة الذهن، تميل إلى الدعاية والنكتة، وكانت جميلة الصوت في صوتها رخامة وحنان" (22)، هذا عن شخصية سلامة أما موطن نشأتها فهو جو ريفي " ولو نشأت - أي سلامة - في بيت آخر غير هذا البيت الصالح ... لما بقيت - وقد جاوزت الرابعة عشرة من سنها - تخدم المنزل وترعى الغنم. كانت ... تشعر في قراره نفسها شعوراً مبهمًا بأنها لم تخلق لهذا البيت، وأنها خلقت لشيء آخر لا تعرفه تمام المعرفة، ولكنها تحس به إحساساً عميقاً، كانت تميل إلى الغناء فلا تكاد تسمع لحنا حتى تحفظه" (باكثير 22). والمعروف أن أم كلثوم قدمت إلى القاهرة، فتاة موهوبة، من بيئة مشابهة. ومن أراد أن يدرك أكثر هذا التشابه بين جو الغنائي في الرواية وجو الغناء مع مطلع ظهور أم كلثوم في الساحة الغنائية في مصر فليرجع إلى سيرة أم كلثوم ليتضح له هذا السياق المتشابه.

أخذ باكثير الحدث التاريخي لحكاية القس سلامة، وصاغ هذا المضمون مادة أدبية فنية في روايته، مستعيناً بالتراث وعبرًا بروح هذا التراث حدثاً بل ولغة كما لاحظ ذلك الحضرمي، "لغة باكثير لغة تراثية متماسكة" (الحضرمي 338) مشيراً من خلال هذا الحدث إلى عدة قضايا دينية واجتماعية منها: الدين والحب، الدين والفن أو بالأحرى الغناء والقرآن، جدواي الشعر والغناء، المجنون، والررق (انظر على سبيل المثال الصفحتان 20، 38، 51). وكان باكثير يطوع الأدب ليعبر عن الحدث والحدث نفسه يجب أن تكون له فنيته التي تجعله يصلح أن يكون مادة أدبية جمالية.

الذات والموضوع في رواية سلامة القدس د. أبو بكر محسن الحامد

وقد أشار الناقد عز الدين اسماعيل إلى ميزة باكثير هذه حين كتب في مجلة المسرح واصفاً باكثير بأنه جعل "الشعر في خدمة الموقف الدرامي وليس العكس" (اسماعيل 1) أسلوب التعبير عن هذا المضمون شكل جمالي اللغة فلقد كان باكثير حريص على الفنية والجمالية المرتبطتين بالحدث أو الشخصية فهو لا يختار الشخصيات "لتاريخيتها بل لفنيتها" (البابكري 150). قد صور باكثير في (سلامة القدس) العلاقة بين الدين والفن في بادئ الأمر أنها علاقة صراع وتنافر ولكنه بعد ذلك بين إمكانية تصالح ولقاء الدين والفن، بل جعل التوفيق بينهما من الأمور الطبيعية. ولعل تأمل هذين البيتين يساعد القارئ على فهم لمبمضون هذه الرواية: ناسك يقع في حب مغنية، و"يريدها حلالاً"، ويرضى بها زوجة له، ولكن المجتمع ينكر عليه هذه المشاعر:

قالوا أحب القدس سلامة
وهو التي في الناسك الطاهر
كأنما لم يدر قبلي الهوى
إلا الغوي الفاتك الفاجر (باكثير 90).

والواقع أن باكثير في فكرته عن لقاء الدين والفن يسبق واقعه من جهة ويعيد تفسير المفاهيم الدينية من جهة أخرى بدرجة تتجاوز مفاهيم عصره، كتب سعيد يقول: "إنه المتفق الذي غالباً ما يقف في وجه الثقافة الوطنية السائدة ليعزز قيمها وأفكاراً قد لا تقبلها تلك الثقافة الوطنية أو المحلية بحجة أن هذه الأفكار والقيم تارة تسمى على تلك الثقافة، أو تتدخل تارة أخرى في موروث تلك الثقافة السادس" (ترجمتي، See also Said 1 (5) حاول باكثير في روايته يأتي بموقف لا عهد بمجتمعه به، موقف جديد لا يألفه الفقهاء بل سائر الناس، وعندما يقع القدس في هذه العلاقة العاطفية، حب سلامة، في بادئ الأمر يحس بصراع وحيرة يهزان كيانه، (انظر الصفحتان 72 ، 86 ، 90 ، 95 ، 102 ، 106 - 108 - 109 ، 111 ، 175)، ثم يشعر بعد ذلك بتحول عاطفي يمنحه الحيوية والقدرة (الصفحتان 102 ، 104)"

يصور باكثير حيرة القدس في عدة مواضع منها حوار عبد الرحمن مع نفسه محاولاً اتباع نصيحة شيخه أبي الوفاء وان يثني نفسه عن التمادي في ميله إلى سلامة: "ما باله اليوم يقع على الزرابي الوثير، ويطأ على الطنافس الثمينة، وينادم ابن سهيل على الغناء والشعر، ويجلس عنده إلى قينة جميلة فاتنة يرى محاسنها، ويستمع لحديثها، ويستمتع بغنائها وتطربيها؟ حتى سلبت له وشغفته حباً، فأبدلتله بآنسه هماً، وبفراغه شغلاً، وبالسلامة خطراً وفتنة" (107) يتطور هذا الحوار بينه وبين نفسه ليدخل فيه عنصر آخر، وهو الناصح: "يا ليته كان قد استمع لنصيحة صاحبه

الذات والموضوع في رواية سلامة القس..... د. أبوبكر محسن الحامد

الشيخ أبي الوفاء وعمل برأيه، فقد كان أعرف منه بمكامن الخطر ومراتع الغي ومداخل الشيطان ومخارجه، إذ نصحه أن لا يعرض تقواه للتجارب متوكلاً على صمودها لهجمات الهوى، وثبتتها في معارك الفتن، لعلمه أن النفس أمارة بالسوء، وإن ملاك التقوى الابتعاد عن مواطن الشر والفرار من أماكن الريبة" (107). في وصف الحيرة نقرأ مفردات مثل "الشيطان"، "الحرام"، "الفسوق"، "الإثم" وما شابه "وبل لي أشتئيت الحرام؟ أشتئيت الفسوق والإثم؟ أهذا أنت يا عبد الرحمن؟ أو قد الشيطان منك هذا المبلغ حتى تقول لجارية لاحق لك فيها إنك تشتهي أن تضع فمك على فمها؟ ماذما تركت للشيطان بعد هذا؟ وماذا تخشى من الإثم والفسوق بعده؟ سبحان الله، كيف وقع هذا منه ولم ينفطر قلبه دما على ما فرط في جنب الله، ولم تبك عيناه دما؟ لقد كان حسنه أن يمر ما دون هذا بخاطره ليشعر جسمه من خوف الله، ويخجل من الوقوف أمامه للصلوة، فكيف به وقد نطق به بلسانه" (106)، وفي وصف التصالح نجد مفردات مختلفة كـ "الهدى"، وـ "الحن الأزلبي الخالد" كما سنقرأ في الفقرة الآتية. ففي حوار يدور بين عبد الرحمن وبين أبي الوفاء. يصف أبو الوفاء العلاقة العاطفية التي نشأت بين عبد الرحمن وسلامة أنها "بهتان" أي الحب بهتان، ظلم واعتداء وزور وإثم كبير، قال أبو الوفاء وهو يرتجف من الغضب: "كيف نسكت عن هذا البهتان؟" فقال عبد الرحمن: "انه ليس بهتان يا أبي الوفاء". فنظر إليه الشيخ كأنه ينكر عليه قوله وقال "معاذ الله أن يقع منك هذا يا بن أبي عمر". فغلب عبد الرحمن البكاء وقال بصوت تخنقه العبرة: "انه والله قد وقع يا أبي الوفاء.. ولا حيلة لي فيه". فسكت أبو الوفاء وهو يغاليب عبرة تجول في عينيه ثم قال: "إن تلك قد وقعت في شيء من ذلك فأنت إلى الله فان المؤمن إذا تاب تاب الله عليه". فقال عبد الرحمن بصوت مقطوع: "لقد جاهدت لأصرف نفسي عن رؤية هذه الجارية وسماعها، فلم أجده إلى ذلك سبيلاً". قال أبو الوفاء: "في وسعك لو شئت أن تقطع عن دار ابن سهيل وتقرغ إلى صلاتك". فأجابه عبد الرحمن وقد عادت إليه رباطة جأشه قائلاً: "الله فعلت ذلك فوجدتني لا أنشط إلى صلاتي في اليوم الذي لا أرى سلامة فيه". وهنا يصل باكثير بحيرة عبد الرحمن إلى ذروتها ولكن على لسان أبي الوفاء حين حوقل وقال بلهجة فيها صرامه وقوسها: "أوقد بلغ الشيطان منك هذا المبلغ يا قس حتى استطاع أن يريك الباطل حقاً" (79 – 60). هذا الحوار لا يجدي لأن عبد الرحمن قد وقع في ما يراه شيخه انه البهتان والباطل نفسه ولكن الحيرة تتلازم عبد الرحمن أو تثير حرباً لتهأ في أعماقه وتشطره إلى قسمين: "وشغف عبد الرحمن بسلامة، فكان يحلم بها ليله ونهاره، ويتسلى طيفها إليه حتى في صلاته وقيامه، وقامت بين نفسه الزاهدة الناسكة وبين نفسه المفتوحة للحياة حرب عوان صلي بنارها، وكان وقودها من

الذات والموضوع في رواية سلامة القس..... د. أبوبكر محسن الحامد

روحه وجسمه، وشقى بها شقاء لم يشق قبله مثله، كما سعد بها سعادة لم يجد لها من قبل مثيلاً" (باكتير 72).

هذه العلاقة العاطفية حولت حال الناسك من الخمول إلى النشاط والحيوية والإقبال على الناس وعلى مباحث الحياة وطبياتها، بل وأصبح أكثر خشية لله: "كان في ماضيه يخشى الله ويتقى، ويبيكي في صلاته وقيامه، فهل ذهبت عنه خشية الله وتقواه؟ أليس خشيته اليوم وقد حفت به الشهوات وتبرجت له الدنيا أعظم من خشيته أمس حين لم يكن في متقلب عيشه ما يخشى الله فيه؟ وهل رقا دمعه إذا اجهن الليل وقام في سكونه ينادي الله؟ أليس يكافأه اليوم أعمق" (111). بعد هذه الحيرة وبعد التبدل الذي يعصفها يصور باكتير التوفيق والتصالح بين النفس المقبلة على الحب والنفس التقية: "وهذه تلك الحرب الجبارية التي كان تستمر في رأسه بين نفسه التقية الزاهدة ونفسه المقبلة على الحب والحياة، فكأنما تصالحتا . . . (باكتير 82)، هذا التصالح هو الحل والمخرج من ذلك الصراع النفسي الحاد (انظر الصفحتين 39 ، 103) فقد تحقق فيه لقاء الدين والفن محل صراع الدين والفن!

وصل هذا التصالح إلى قبول الغناء بل وتحويله إلى حافز للعبادة، نقرأ في الرواية: "والغناء الذي أغرم به عبد الرحمن ما هو أثره فيه؟ الم يفدي منه ترقيقاً لقلبه وتلطيفاً لحسه؟ الم يقتبس منه تلك اللوعة التي يقوم بها للصلة فإذا به يشعر بأنه روح قد عتقد من رق الجسد وارتفعت عن الأرض فهممت في السماء واتصلت بالملائكة على الم يأخذ عنه تلك الروعة التي يقرأ بها القرآن فإذا عوالم من المعاني تتكشف لقلبه وإذا أبواب المعرفة وألوان من الفكر وإذا الكون كتب يتلى وإذا النظام الذي تقوم عليه السموات والأرضون لحن الزئ خالد؟" (112). لقد تم اللقاء هنا بين الدين والفن وبين الدين والعلاقة العاطفية السليمة، وترافق الفرح إمام عيني عبد الرحمن بوصوله إلى هذا الفتح الكبير، " واستمر عبد الرحمن على هذا النحو يوازن بين حاضره وماضيه فيجد الرجحان لحاضره، أو يميل قلبه إلى ترجيحه فيصدقه عقله، أحـسـعـنـدـذـلـكـبـطـمـائـيـنـةـتـنـزـلـفـيـقـلـبـهـ،ـوـشـعـرـكـانـشـيـئـاـنـفـسـيـاـأـوـشـكـأـنـيـضـيـعـمـنـهـ فـاسـتـرـدـهـ،ـوـعـادـلـهـخـيـالـسـلامـةـبـاسـمـةـمـنـطـلـقـةـكـمـاـرـآـهـلـلـمـرـةـأـوـلـىـ،ـفـحـنـإـلـيـهـ،ـ وـاسـتـيـقـظـتـأـمـانـيـهـ،ـوـطـفـقـتـأـحـلـامـهـتـرـاقـصـأـمـامـعـيـنـيـهـ" (112). وتنتهي العلاقة العاطفية بين القس سلامة بما انتهت به الرواية: الحياة الأخرى خير وباقي: قال عبد الرحمن والدموع يترفق في عينيه: "أجل انقطع كل أمل في صيرورتك إلى في هذه الحياة الدنيا ، إما في الآخرة فإن الأمل باق يا سلامة، وإنه لأمل كبير" (174).

الذات والموضوع في رواية سلامة القس..... د. أبوبكر محسن الحامد

استعان باكثير ، كما أشرنا ، بتقنيات مختلفة لتحقيق جمالية نصه ، فقد أورد إشارات مباشرة وغير مباشرة إلى مواقف قرآنية والى صور وأشخاص من التراث فهو على سبيل المثال يشير إلى قصة النبي يوسف وموقفه من إغراء زليخة . يورد إشارات مباشرة ، حين يصدر روايته بمقتطف من الآية القرآنية: "ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه" ويورد إشارات غير مباشرة حين يلمح إلى نهايات بعض الآيات القرآنية "الأم تطمعين في شيء لم يشا الله أن يكون" (166) ، أو في قوله خاتمة لفقرة طويلة في صفحة (113): "... فيغفر لنفسه إذا ما لم يغفر الله من ذنبه ويؤاخذها بما غفر الله من ذنبها؟ إن هذا إذا لظلم عظيم" ، أو قوله "وذهب عقب ذلك إلى المسجد الحرام ليتمثل إمام ربه عند بيته المحرم ، كأن لم يأت أمراً إداً" (106) . هذا الأمر الإد هو لقاوه بسلامة وتماديه في الحوار معها حتى وصلا إلى حد هذا الأمر وحين تمت الإشارة إلى جبل "احد" وارتباطه الديني التراثي جرى استحضار هذا الرمز بتداعيات عاطفية: "شعر عبد الرحمن في تلك الساعة كأن أحداً ليس جبراً من صخر أصم ولكنه مخلوق حي يتنفس ويشعر ... ويحب!" وأورد حينها قول الرسول "هذا جبل يحبنا ونحبه!" (153).

لنعد إلى العبارات التي قدمناها لشرح مضمون الرواية لنرى جمالية النص ممزوجة بجمالية المضمون ، فلغة النص لغة جميلة ، والمضمون نفسه مضمون وجذاني ينفذ إلى أعماق النفس من خلال وحدة المضمون واللغة جمالياً . في هذه العبارات نفسها نقرأ تراكيب لغوية تتضمن صوراً فنية معيرة تقوم بدور محدد لها ، ففي هذه العبارة مثلاً: "... حتى سلبت لهه وشغفته حباً، فأبدلتـه بـأنـسـهـ هـمـاـ، وـيـفـرـاغـهـ شـغـلاـ" (107) انسجام بين المفردات بوجود ما يشبه المقابلة في الألفاظ: "أنـسـهـ" وـ"فـرـاغـهـ" ثم "همـاـ" وـ"شـغـلاـ" يعزز هذا الانسجام تصوير الحالة التي طرأت على عبد الرحمن في بداياتها . ونقرأ عبارة موغلة في التراث الديني وتمتاز بحركة درامية نتجت عن استخدام الاستفهام وتضمين أكثر من طرف في هذه العبارة ، الناصح من جهة والمنصوح نفسه من جهة أخرى ، والصراع المتراجع داخله : "أو قد بلغ الشيطان منك هذا المبلغ يا قس حتى استطاع أن يريك الباطل حقا؟" (79 - 60) . وفي موضع آخر نقرأ "تبرجت له الدنيا" صورة فنية تبدو فيها الدنيا شبهاً بالغادة المزينة ، إضافة إن هذا الوصف له جذوره في النص القرآني كما لا يخفى ذلك . وفي موضع "التبدل" الذي طرأ على شخصية الناسك بعد حبه لسلامة وتصالحه مع حيرته ، بعد ذلك يصبح "الكون كتاب" وـ"الأرضون لحن" (112) صورة فنية حفتها الاستعارة في تلك العبارة . وفي قوله "... أحس عند ذلك بطمأنينة تتنزل في قلبه ، وشعر كان شيئاً نفسياً أوشك أن يضيع منه فاسترده ، وعاد له خيال سلامة باسمة" وصف دقيق لل مجرد ذلك الشعور الذي أصاب الناسك بعد رحيل سلامة .

الذات والموضوع في رواية سلامة القدس د. أبو بكر محسن الحامد

يوظف باكتير الشعر، بإيقاعه وصوره، في عدة مواضع من الرواية (انظر الصفحات 14، 20، 37، 60، 70، 78، 81، 90، 95، 99، 103، 129، 177، 177، 178)، توظيفاً فنياً يساعد على إيصال المضمون عبر وسيلة أدبية مؤثرة، هذه بعض الأمثلة:

يعلم الآن فـ قد دـ وق مع القـ س
يـ حـمـ هـ اـ الـ بـ سـ لـامـ هـ
لـمـ صـيـ أـ مـهـ دـائـ مـ
وـلـ يـاـ فـيـ أـ قـاءـ مـ
يـاـ ابـنـ أـ بـيـ عـمـ ارـ
أـ حـدـ وـثـ ةـ السـ لـامـ رـ !
لـهـ يـنـ كـ الـ قـسـ (78)
أـ نـتـ لـهـ نـفـ سـ !

تعزز هذه الأبيات ليعزز انتشار الإشاعة، أي قصة علاقة عبد الرحمن وتفشيها بين العامة وتتذرّم بها في مجالسهم، وتكشف من معاناة عبد الرحمن خاصة بعد تذرّ الناس على التحول الذي طرأ في حياته. وتنمو العلاقة العاطفية بين القس وسلامة، ويشارك الشعر في بيان الصورة وتقديمها بكل الأحساس التي تكمن فيها، من صراع بين الرشد والضلال، وبين البوح والكتمان:

فَعَافُ الرَّشْدَ وَاسْتَحْلَى الظِّلَالُ
وَلَمْ يَنْلِ الْهَوَى مِنِي مِنْ أَلَا
فَلِمَ الْحَاتِ لَيْ ارْتَحَلَ ارْتَحَالًا
فَقَدْ كَانَ عَلَى قَابِلٍ يَ وَبَالًا
وَلَبِ الْمَرْءِ أَفْضَلُ مَا اسْتَقَالَ
وَلَوْ أَنِي أَطْعَتُ الْقَلْبَ قَالَا
وَشَقَ عَلَيِ الْكَتْمَانِي وَطَالَا (96).
فَأَشَهَدُ فِيهِ حِرْبَهُ مَا سَجَالَا
يَذُوبُ هَوَى وَ لَا يَرْجُو نَوَالًا
إِلَى تَقْوَاهُ جَنْبِنِي الظِّلَالُ
فَإِنِي قَدْ لَقِيتُ بِهِ النَّكَالَا
وَتَسْلَمْنِي إِلَى رَبِّي تَعَالَى
سَوَاكَ وَانْتَكُونِي لَيْ حَلَالَا (103) -

.(104)

وتسفر سلامة من مكة إلى المدينة ويودعها عبد الرحمن بجوى وحرقة يصورهما الشعر في حوار بين القلب وحامله، تصل أحاسيس هذا الحوار إلى أعماق وجдан القارئ عبر صور القلب العالق بالراحلة "أمبصر؟"، "أمقر؟" هذا القلب، صوراً لأمانى الجميلة، وصال "الجوذر" أو الصبية الجميلة، وصور الرحيل إلى الوادي المقدس - الأغر "بلغ طيبة، ثم صور حسناه الراحلة عن عينيه وليس عن قلبه - نفاد الصرر في احتمال الفراق. وتبلغ الصورة الفنية ذروتها حين تصف وتصور جمال سلامة بأنه الزاد "زاد" العيون!، عيون عبد الرحمن:

وهل أنت عن سلامة اليوم مقصري؟
آلا قل لهذا القلب هل أنت مبصر
جيـس لـسلـمـي كـلمـا رـنـ مـزـهـرـ !
ألا ليـتـ أـنـيـ حـيـنـ صـارـتـ بـهـاـ النـوـيـ
وضـمـكـ وـاـدـيـهـاـ الأـغـرـ المـنـورـ
فيـاـ رـاكـبـاـ إـمـاـ بـلـغـتـ لـطـيـبـةـ
لـهـ فـيـ مـغـانـيـهـاـ مـنـ الإـنـسـ جـوـذـرـ
فـخـذـرـبـوـةـ وـاقـرـ تـحـيـةـ عـاشـقـةـ
إـلـامـ بـعـيـ نـيـكـ الأـسـىـ وـالـتـذـكـرـ؟
أـقـولـ لـقـلـبـيـ كـلـمـا زـادـ خـفـقـهـ
بـصـرـ فـمـاـ يـجـدـيـ عـلـىـ التـصـبـرـ؟
تـصـبـرـ فـصـاحـ القـلـبـ هـبـنـيـ اـحـتـمـلـهـ
خـذـاـ الزـادـ يـاـ عـيـنـيـ مـنـ نـورـ وـجـهـهـاـ

والواقع أن تشكيل الصور الفنية منتشر في سطور الرواية كلها ليؤكد أدبية النص وجماليته. خذ مثلا تصوير حالات الصمت فالكاتب تارة يستعين بالمفارقة كما في قوله "وخلال المجلس بعد الرحمن وسلامة، وساد فيه الصمت برهة من الزمن شعر في خلالها عبد الرحمن بشعور غريب، فيه رهبة وفيه ضيق وفيه شيء من الفرج" (92)، وتارة يصور الحالة نفسها، حالة الصمت، وكأنه ليس صمتا ، بل تعبير بلغة غير اللغة التي نألف التعبير من خلالها: "فتشاركت سلامة -بالعود وجعلت تضرب لحنا صامتا لعله لو حفظ لكان أجمل تعبير موسيقى وأصدقه عن هذه الحالة المعقدة من حالات النفس الإنسانية" (93). وهذا مثال لالتقاط باكثير صوره من الواقع وإلياسها جمالا فنيا أدبيا: "آن صوتها .. ليتسرب إلى إذني كما يتسرّب الأمل الحلو - كما يهب النسيم العذب - كما يداعب النعاس الأجفان" (30).

لقد حققت رواية (سلامة القس) شروط القصة الحديثة: لأن القصة إنما تصور حدثاً متكاملاً له وحدة، ووحدة الحدث لتتحقق إلا بتصوير الشخصية وهي تعلم، أي عندما يجيب الكاتب على أسئلة أربعة وهي: كيف وأين ومتى ولم وقع الحدث" (رشدي 30)، فهي رواية حديثة توافق فيها شروط الرواية الجديدة لاسيما إذا ما وضعت في

الذات والموضوع في رواية سلامة القس..... د. أبوبكر محسن الحامد

سياق زمانها أي مطلع القرن العشرين فتعريف الرواية "في أوسع المعاني غموضا ، منذ نشأتها حتى أيامنا – أن تكون (حكاية) وأن تحتوي على أشخاص وعمل، أن الأشخاص والعمل ليغزرون ويتراءبون وبينى بعضهم فوق بعض في الرواية التقليدية" (البيريس 452).

استخدم باكثير ما يسميه الناقد الأمريكي إليوت "المعادل الموضوعي" ،⁽⁶⁾ أي "التقط أشياء وأحداث وحالات وصياغتها للتعبير عن مشاعر خاصة، هذا التعبير يثير نفس المشاعر الخاصة التي تثيرها تلك الأشياء أو الأحداث والحالات" (M.H. Abrams . A Glossary of Literary Terms, under Objective Correlative, ⁽⁷⁾ ترجمتي).

الذات والموضوع في رواية سلامة القس..... د. أبو بكر محسن الحامد

الهوامش:

- 1- النص الأصلي: "Beauty [. . . .] is that quality we attribute to "whatever pleases immediately, that is, pleases in itself, . ." (Kirwan 6).
- 2- المقصود بالتمثيل هو "إدخال إشارة مباشرة او غير مباشرة ، إلى شخصية أو مكان أو حدث أو عمل أدبي أو حتى قطعة أدبية مشهورة، في النص" (ترجمتي، انظر Abrams, under allusion)
- 3- انظر كتاب الأغاني ، بيروت: دار الفكر للجميع، 1970 ، جزء 8 ، صفحة 6 ، وانظر البابكري صفحة 35.
- 4- سيون، أول أهم مدينة من مدن حضرموت الداخل، تأتي بعدها تريم، تسبقها المكلا أول مدينة مهمة في مدن حضرموت الساحل والداخل وعاصمة المحافظة. نشأ باكثير في مدينة سيون وتربى تربيته الأساسية الأولى في حلقات مساجدها، و مجالس علمائها، ومدرسة النهضة فيها. يشبه النشاط اليومي لفقيه من سيون النشاط اليومي لفقيه من مكة كما ورد وصف ذلك في الرواية.
- 5- النص الأصلي في كتاب سعيد:
"It has often been the intellectual, . . . , who has stood for values, ideas, and activities that transcend and deliberately interfere with the collective weight imposed by the . . . the national culture" (Said 14).
- 6- بعد قراءة أولية للرواية اتضح لي ربط التحليل لنصها بالمعادل الموضوعي ، علاقة عبد الرحمن بسلامة، الذي اختاره باكثير من التاريخ العربي الإسلامي المبكر، ووقع في يدي بعد ملاحظتي هذه كتاب البابكري روایات علی احمد باكثير التاریخیة فعلمت انه اثبت نفس الملاحظة التي أثبتهما قبل إطلاعي على كتابه هذه مما يؤكّد للقارئ وضوح عنصر السيرة الذاتية من خلال ربط هذا المعادل بما عاشه باكثير او بالأحرى بحالات مشابهه مرت بالكاتب. كتب البابكري في الخاتمة من كتابه "وقد تبين لنا أن باكثير لا يبحث في التاريخ عن الأمجاد والانتصارات بقدر ما يبحث عن معادل موضوعي لمشكلاته ومشكلات العصر، فمشكلاته الذاتية حدته على اختيار مشكلة عبد الرحمن القس، لأن ثمة تشابها بين المشكلتين" (296).
- 7- النص الأصلي في Abrams :
". . . a set of objects, a situation, a chain of events which shall be the formula of that particular emotion, . . ." (under "Objective Correlative."